يستغفر لذنوب المؤمنين والمؤمنات، فذلك دليلٌ على وجوب ملازمة المؤمنين والمؤمنات للاستغفار وأخذ الحذر من الغفلة.

٢٧ – تبيّن الآية الكريمة الثّانية و العشرون أهّميّة صلة الأرحام وثواب الواصل وعذاب القاطع.

٢٨ – تقرّر الآية الكريمة الرّابعة والعشرون وجوب تدبرّ القرآن الكريم الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم.

٢٩ – تبيّن الآية الكريمة الرّابعة والثّلاثون أنّ الشّرك هو الّذنب الّذي لا يغفره الله تعالى.

٣٠ – من الاستعراض السريع نسبيًا لقضايا السّورة الكريمة يتبيّن بإذن الله تعالى وحدها العضويّة والتّرابط بين موضوعاتها، علماً بأنّ تلك الوحدة وذلك التّرابط قد اتّضحا بفضل الله تعالى بصورةٍ قوية في الاستعراض السّابق تحت عنوان : بين يدي التّفسير.

يقرّر السّياق أنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى قد زاد عزّ وجلّ أعمالهم ضلالاً إلى ضلالها، وأنّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ ﷺ من قرآنٍ مجيد، وهو الحقّ الموحي به من ربّهم جلّ وعلا، كفّر عنهم سيّئاتهم وحطّها عن كواهلهم، وأصلح بالهم وحالهم وشأنهم. ذلك الإضلال للكافرين، وإصلاح حال المؤمنين، بسبب أنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل وأنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم جلّ و علا. في مثل ذلك التبيّين يضرب الله تعالى الأمثال للنّاس، ويعيّن الأشباه، و يفصّل الصّفات، كي يعرف كلّ فريقٍ الفريق الّذي ينتمي إليه، وفريق أهل الجنّة فيَعضّ عليه بالنّواجذ، وفريق أهل النّار كي يفرّ منه فرار الحمر المستنفرة من القَسْوَرَة والأسد الهصور.

كان ضرب الحقّ جلّ وعلا للنّاس أمثالهم، مطيّةً لأمر المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى؛ أن يضربوا بالسّيوف في المعركة رقاب الكافرين، وأن يطيروا رؤوسهم من بين أكتافهم، ومن باب الأحرى أن يطعنوهم بالرّماح، ويرموهم بالنّبال، ويستعملوا معهم كلّ وسائل القتال المتغيّرة بتغيّر الأزمان والأحوال للغاية ذاتها. حتّى إذا أثخن المؤمنون الكافرين قتلاً وجرحاً، وأنهكوا قواهم، وشلّوا حركتهم، وأرغموهم على الاستسلام؛ شدّوا وثاق الأسارى شدّاً وثيقاً. وبعد ذلك إن شاء المسلمون منّوا على الأسارى فأطلقوا سراحهم دون مقابل، أو أخذوا منهم الفداء، فذلك حقّ للحاكم المسلم يستطيع أن يفعله بنصّ القرآن الكريم، وقد فعل النّبيّ ﷺ كلاّ من المنّ والفداء. وكذلك فعل النّبي ﷺ شيئين آخرين للأسير، هما الاسترقاق أو القتل. وبذلك يكون من حقّ الحاكم المسلم أن يعامل الأسرى وفق أيّ حالٍ من الحالات الأربع التي يرى فيها مصلحةً للمسلمين .

إنّ الخصوم إذا منّوا على أسرانا منّا على أسراهم، و إذا أخذوا الفداء أخذنا، وإذا قتلوا أسرانا قتلنا، و إذا استرقّوا أسرانا استرققنا. ويظلّ الأمر كذلك حتّى تضع الحرب أوزارها بين الفريقين و تحطّ أثقالها.

الأمر ذلك بتجشّم المؤمنين قتال الكافرين حتّى تضع الحرب أوزارها، ولو يشاء الله تعالى غير ذلك بنصر المؤمنين دون قتال لفعل، ولانتصر عزّ وجلّ من الكافرين ببعض جنوده عزّ وجلّ الّذين لا يعلمهم إلاّ هو جلّ وعلا. ولكنّ الله تعالى أراد أن يقاتل المؤمنون الكافرين ليبلو بعضكم ببعض كي يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين. والّذين قتلوا في سبيل الله تعالى فلن يبطل عزّ وجلّ ثواب أعمالهم الصّالحة. إنّ الله تعالى سيهدى الشّهداء السّعداء إلى ما ينفعهم، وسيصلح حالهم، ويدخلهم يوم القيامة الجنّة الّتي عرّفها لهم، فهم أهدى الخلق إليها.

والله سبحانه وتعالى يعد المؤمنين الّذين ينصرونه بالنّصر على الأعـــداء، وبتثبيـــت الأقدام في كلّ مواطن القتال والنّزال. أمّا الكافرون فتعسوا تعساً، ولقوا في كلّ المواطن نحساً، وزلّت بهم الأقدام، وانكبّوا على وجوههم و الأفواه، وصادفوا شقاءً وهلاكاً وزاد الله تعالى أعمالهم ضلالاً إلى ضلالها ذلك الضّلال البعيد للكافرين والـــشّقاء الأكيـــد بسبب أنّهم كرهوا ما أنزل الله تعالى من قرآنٍ مجيد ، فأبطل الله تعالى ثواب أعمـــالهم الصّالحة لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى.

وهؤلاء الكافرون الّذين كرهوا القرآن الكريم ومن ثّم هم لم يتّعظوا به، هلاّ ساروا في الأرض فنظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من الكافرين أمثالهم. لقد دّمر الله تعالى عليهم منازلهم. وللكافرين في كلّ زمانٍ ومكانٍ أمثال هذه العواقب الوخيمـــة. ذلك المصير الحسن للمؤمنين والسّيّئ للكافرين، بسبب أنّ الله سبحانه وتعـــالى مـــولى الّذين آمنوا وناصرهم، وأنّ الكافرين لامولى لهم ولا ناصر. وهذه الحيـــاة الطيّبّـــة في الأولى للمؤمنين، والحياة النّكده للكافرين، موصولةٌ حتّى الآخـــرة للفـــريقين. إنّ الله تعالى يدخل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّاتٍ تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار. والّذين كفروا يتمتّعون في الحياة الأولى ويأكلون كما تأكل الأنعام الغافلة عن الذّبح الّذي ينتظرها، والنّار مثوىً لهم، مأوىً وسكن.

وأنت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لك أسوةٌ حسنةٌ في موكب الرّسل الكرام السّابقين والنّبيين. كم من قريةٍ هي أشدّ قوّةً من قريتك الّتي أخرجك أهلها منها بإذن الله تعالى، أهلكناهم فلا ناصر لهم بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه. وإنّ على كفّار مكّة أن يفيقوا من غفلتهم ويبادروا إلى اتّباعك والإيمان بما جئت به من ربّك عزّ وجـــلّ، وأن ينضمّوا إلى فريق المؤمنين. إنّه لا يستوي الفريق الّذي هو على بيّنةٍ من ربّه جـــلّ

وعلا وهدى، والفريق الّذي زيّن له الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء سوء عمله واتّبع هواه واتّخذ ذلك الهوى إلهاً من دون الله تعالى.

وبعد التّرهيب يأتي التّرغيب. وبعد الإشارة على الإجمال إلى أنهار الجنة، يأتي الحديث على التّفصيل الّذي ليس له نظيرٌ في سائر سور القرآن الكريم. إنّ صفة الجنّة الّتي وعدها الله تعالى المتّقين، فيها أنهارٌ من ماءٍ غير متغير الرّائحة، وفي نفي تغيّر الرّائحة الّذي يصيب الماء أوّلاً غالباً نفيٌ لتغيرّ كلّ من الطّعم واللون. وفيها أنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمه ومن باب أولى ما يطرأ من تغيّر على اللّبن بعد الطّعم. و فيها أنهارٌ من خمرٍ هي عين اللّذّة للشاربين والمتعة إذ لا منغصّات تتعلّق بخمر الآخرة طعماً، ورائحةً، ومفعولا. وفيها أنهارٌ من عسلٍ مصفىّ من أدنى شائبة كالشّمع مثلاً. وهكذا كان من نصيب العسل اللّون، بعد أن كان نصيب اللّبن الطّعم، ومن نصيب الماء الرّائحة. ما أُعَدلَها من قسمة. وما أروع التّرتيب للأنواع الأربعة من الأنهار أو السّوائل، ذلك التّرتيب الّذي يوافق في هذه الحياة الدّنيا ترتيب هذه السّوائل من حيث الوفرة بناءً على الحاجة.

وللمتّقين في الجنّة من كلّ الثّمرات، وهكذا يكون للمتّقين في الجنّة الشّراب الهنيء والطّعام المريء. ويتوّج كلّ ذلك النّعيم بالرّضا عليهم من الرّبّ البَرِّ الرّحيم، ذلك الرّضا الّذي يتجلّى في أبهى صورهِ، وذلك في مغفرة ربّهم جلّ وعلا ذنوبهم، وستر عيوبهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

أمَنْ هو في النّعيم المقيم كمن هو خالدٌ في نار جهنّم؟ وحينما يطلبون الماء يسقون ماءً شديد الحرارة، يمزّق أحشاءهم، ويقطّع أمعاءهم، فتخرج من أدبارهم.

إنّ على الكافرين أن يتّعظوا، وأن يتّبعوا أحسن الحديث، كي ينجوا من النّار ويدخلوا بإذن ربّهم جنّات النّعيم.

ومِنْ هؤلاء الكافرين منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان؛ إنّ هؤلاء المنافقين يستمعون إليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ وأنت ترتلّ القرآن الكريم ترتيلاً وتبيّن للنّاس أمور دينهم ولكنّهم لا يفهمون معنى ما تقول. حتّى إذا خرجوا من عندك يا محمّد قالوا للذّين آتاهم الله تعالى العلم الوهبّي من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم : ماذا قال محمّد السّاعة، وما المعنى الّذي أراد أن يوصله إلينا قبل قليل. إنّ أولئك المنافقين هم الّذين ختم الله تعالى على قلوبهم، وزاد تلك القلوب انصرافاً عن الحقّ، واتبعوا أهواءهم.

وكما زاد الله تعالى قلوب المنافقين المنصرفين عن الهدى انصرافاً، زاد جلّ وعلا الّذين اهتّدوا هدىً، وآتاهم تقواهم، وملأ قلوبهم خشيةً له عزّ وجلّ وحبّا.

وإنّ هؤلاء المصّرين على الكفر رغم كلّ هذه الآيات والنّذر، هل هنالك شيء آخر ينتظرونه غير السّاعة، فقد جاء أشراط السّاعة، وظهرت علاماتها، ومنها بعثة محمّد ابن عبد الله ﷺ ، فكيف ينفع هؤلاء الكافرين التّذكر إذا قامت السّاعة فعلاً وفات الأوان. إنّ عليهم أن يبادروا فعلاً إلى الإيمان وعمل الصّالحات، وإنّ عليهم أن يقفوا على العلم الصّحيح، وأن يكون عملهم وفق ذلك العلم الصّحيح المستمدّ من القرآن الكريم ومن سنّة المصطفى ﷺ .

فاعلم أيهّا الرسول الكريم والنّبي العظيم، وإنّ أمّتَكَ تبعٌ. لك في هذا العلم الصّحيح الّذي هو أساس كلّ عمل صحيح، فاعلم أنّه لا اله إلاّ الله، وأنّه لا معبود بحقّ سوى الله تعالى قيوم السّماوات والأرض. وأنت أيهّا الرّسول الكريم، والنّبيّ الرّؤوف الرّحيم، استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات. وأنت في استغفارك ربّك جلّ وعلا، الّذي غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، أسوةٌ حسنةٌ لأمتّك. والله تعالى يعلم متقلّبكم وحركتكم في النهّار، ومثواكم وسكونكم في اللّيل، من هو سارِبٌ وعامِلٌ في

النّهار، ومستخفٌ ومستترٌ في اللّيل، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شـــيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وقد كان الأمر للمصطفى ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، مرشّحًا لتحـــوّل الحديث إلى المؤمنين من زاوية الموضوع الرّئيس في السّورة الكريمة، وهـــو الجهـــاد في سبيل الله تعالى.

ويقول الّذين آمنوا الحريصون على بذل النّفس والنّفيس في سبيل الله تعـــالى هـــلاّ نّزلت سورةٌ في الجهاد في سبيل الله تعالى. فإذا أنزلت سورةٌ محكمة، واضـــحة المعـــنى ظاهرة المغزى وجاء فيها ذكر القتال ذكراً عابراً؛ رأيت يا محّمد الّذين في قلوبهم مرض النّفاق ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من خوف الموت وقد حضرت أسبابه، فأولى بهم الهلاك وأقرب لهم الشّقاء. طاعةٌ مطلقةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ وقولٌ معروفٌ حَسَنٌ لك يا محّمد أولى بهم وأليق فإذا عزم الأمر وجدّ الجدّ ووجب القتال كرهوه، فلو صدقوا الله تعالى نيّةً وقولاً وفعلاً لكان خيراً لهم وأفضل. ولا يخفى أنّا وفق رأي فريقٍ من العلماء بشأن موضعٍ في القرآن من أكثر المواضع ازدحاماً بالبلاغة بالحذف.

فلعلّكم أيّها الكافرون إن تولّيتم عن رسولي الكريم، وأعرضتم عن كتابي العزيز أن تفسدوا في الأرض بإهلاك الحرث والنّسل، وتقطّعوا أرحامكم على غرار فعلكـــم في الجاهليّة. أولئك هم الّذين طردهم الله تعالى من رحمته، فأصمّ أسماعهم عن سماع دعوة الحقّ سماع قبول، وأعمى أبصارهم وبصائرهم عن رؤية نور الهداية. و إنّ الـــسبب في كلّ ذلك الشّقاء كرههم للقرآن الكريم. أفلا يتدبّرون القرآن الكريم ويتأمّلوه أم علـــى قلوب القوم أقفالها. إنّ على قلوب القوم أقفالها فعلاً.

لقد تمادى المنافقون في غيّهم حتّى ارتّدوا عن الهدى من بعد ما تبيّن لهم واتّـــضح بسبب أنّ الشّيطان الرّجيم سوّل لهم وزّين لهم سوء أعمالهم وأملى لهـــم في الآمـــال

والأحلام والأوهام. لقد تمكّن الشّيطان الرّجيم من امتطائهم بسبب أنّهم قالوا لإخوانهم الكافرين الّذين كرهوا ما أنزل الله تعالى من قرآنٍ مجيدٍ سنطيعكم في بعض الأمر الّذي نستطيع، بقصد تثبيط المؤمنين عن قتالكم. والله تعالى يعلم إسرار المنافقين، ومن باب الأحرى يعلم إعلانهم.

إنّ على المنافقين أن يتوبوا لله تعالى توبةً نصوحاً وإلاّ فالويل لهم حينما تتوفّاهم ملائكة العذاب؛ يضربون ووجوههم الّتي استقبلوا بها الباطل، وأدبارهم الّتي أداروها إلى الحقّ. لقد توفّتهم الملائكة في هذه الطّريقة المهينة بسبب أنّهم اتّبعوا ما أسخط الله تعالى وأغضبه، وكرهوا ما يرضي الله تعالى فأبطل أعمالهم.

أم حسب المنافقون الّذين في قلوبهم مرض النّفاق، و تآمروا على المؤمنين مع الكافرين أنّ الله تعالى لن يكشف حقدهم الشّديد على الإسلام وأهله. لقد كشفت – مثلاً – سورة التّوبة الّتي تلقّب بالفاضحة سوءات المنافقين. إنّا لو نشاء يا محمّد لأريناك المنافقين فلعرفتهم بعلامات النّفاق و الخاصّة بهم، ولكن لم نشأ ذلك .ولعلّ القوم يستفيدون من فترة الإمهال هذه. ولتعرفنّ يا محمّد المنافقين في لحن القول الّذي يعرفون به، وفي ميلهم باللّفظ عن صحيح معناه، أو بالمعنى عن صحيح فحواه. والله تعالى يعلم أعمالكم. وهكذا يكون في الآية الكريمة تحوّلٌ من العلامات المفهومة، إلى الأقوال المسموعة، إلى الأعمال المُبْصَرَة.

ولنختبرنّكم أيّها المؤمنون بصنوف البلاء، حتّى يظهر المجاهدون منكم، والصّابرون على البلاء والطّاعات، وعن المعاصي، ونختبر أخباركم ليتبيّن الفريق الّذي تنتمون إليه على الحقيقة يا أيّها المؤمنون! إنّ عليكم أن تنصروا الله تعالى كي ينصركم في كلّ المواطن.

وبما أنّ المنافقين قد انكسرت شوكتهم بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة في أواخر سنة خمسٍ من الهجرة، وأخذوا في طريق التلاشي والاختفاء، فمعنى هذا أنّ صراع المؤمنين سيكون مع الكافرين في المقام الأوّل. وإنّ القسم الأخير من السّورة الكريمة يتكلّم في هذا الموضوع. إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى وخالفوا الرّسول ﷺ وشاقّوه من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا الله تعالى شيئاً، وسيبطل عزّ وجلّ ثواب أعمالهم، فعليكم بهم أيّها المؤمنون. وأنتم يا أيّها المؤمنون أطيعوا الله تعالى وأطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم ولا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي. وإنّ الّذين كفروا، وصدّوا عن سبيل الله تعالى، ثمّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله تعالى لهم، لأنّه عزّ وجلّ لا يغفر أن يُشْرَكَ به. فلا تضعفوا أيّها المؤمنون، ولا تجبنوا عن قتال الكفّار، ولا تكونوا البادئين بطلب المسالمة مع الكفّار، وأنتم الأعلون عند الله تعالى على الحقيقة، والله تعالى معكم بالعون والنّصر، ولن يُنقصكم ثواب صالح أعمالكم. واعلموا أيّها المؤمنون أنّ الحياة الدّنيا ليست إلاّ لعباً حينما لا يراد بالأعمال الصّالحة وجه الله تعالى، ولهوا حينما تكون الأعمال غير جادّة أصلا. وإنّ تؤمنوا وتتّقوا يؤتكم عزّ وجلّ ثواب أعمالكم ولا يسألكم أموالكم ولكن يسألكم الزّكاة والصدّقة. إن يسألكم الحقّ جلّ وعلا أموالكم ويلحف في السؤال؛ تبخلوا ويخرج أضغانكم ضدّ الإسلام . ها أنتم هؤلاء تُدْعون لتنفقوا في سبيل الله تعالى، فمنكم من يبخل. ومن يبخلْ فإنّما يبخل عن نفسه لأنّه حرمها ثواب النّفقة في سبيل الله تعالى، والله تعالى هو الغنيّ وأنتم الفقراء أيّها النّاس. وإن تتولّوا أيّها المؤمنون وتعرضوا يستبدل قوماً غيركم، أذلّة على المؤمنين، أعزّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله تعالى ولا يخافون لومة لائم. إنّ هؤلاء الّذين يأتي الله تعالى بهم لن يكونوا أمثالكم أيّها المؤمنون المخاطبون، الّذين تنكصون عن الجهاد في

سبيل الله تعالى وتبخلون بالإنفاق في سبيل الله تعالى من المال الّذي آتـــاكم الله تعـــالى إيّاه، بل سوف يبذلون النّفس والنّفيس في سبيل الله تعالى.

ثالثاً : سورة الفتح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ
ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا
يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا

وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ
فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ
ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ
وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ
قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۚ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ
ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ
فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ
عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾
وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي
قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ
رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى
ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى
ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ
فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

بين يدي التّفسير

(١)

"إنا فتحنا لك يا محمد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك من شكر لله تعالى، وليقوم المؤمنون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى فيثيبهم، وليعذّب المنافقين والمشركين"

الآيات (١ -٧)

إنّا فتحنا لك يا محّمد فتحاً عظيماً بصلح الحديبية، لتقوم بما يجب عليك من شكرٍ لله تعالى كفاء نعمه العظيمة عليك، وفى مقدّمة ما تقوم به الجهاد في سبيل الله تعالى، ليغفر لك الله تعالى ما تقدم من ذنبك وما تأخر منه،ويتم نعمته عليك بذلك الفتح المبين، وبإكمال الدّين الّذي أرسلك عزّ وجلّ به، ويهديك صراطاً مستقيماً ينتهي إلى النّعيم المقيم في الجنة، وينصرك الله تعالى في كلّ المعارك مع قوى الشرّ نصراً عزيزاً غالياً.

إنه جلّ وعلا هو الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فقبلوا شروط صلح الحديبية التي شق عليهم قبولها أول الأمر، ليزدادوا إيماناً بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعةً مطلقة مع إيمانهم السابق بالله تعالى الرحمن الرحيم، ورسوله ﷺ الكريم، وبالقرآن المجيد وبدين الإسلام العظيم، ولله تعالى جنود السماوات والأرض، وأنتم أيها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ بعض أولئك الجنود، وكان الله تعالى دائماً وأبداً لا يخفى عليه شيء، حكيماً في كلّ شيء.

إنّا فتحنا لك يا محمّد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك شكراً لله تعالى، وفي مقدّمة ما تقوم به الجهاد في سبيل الله تعالى، وليقوم المؤمنون كذلك بما يجب عليهم من شكر

لله تعالى ومن جهاد في سبيله عزّ وجلّ ليدخل جلّ وعلا المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويمحو ذنوبهم، ويستر عيوبهم. وكان ذلك الخلود في جنّات النعيم فوزاً عظيماً، ونجاحاً كبيراً. وليعذّب الله تعالى المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، الظّانّين بالله تعالى ظنّ السَّوْء بأنّ الله تعالى لن ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين.عليهم دائرة السَّوْء مرتّدة، إليهم عاقبة العذاب ممتدّة، وغَضِبَ الله تعالى عليهم، وطردهم من رحمته، وأعدّ لهم يوم القيامة جهنّم، وساءت عاقبةً ومصيراً. ولله جنود السّماوات والأرض الّتي لا يعلمها إلاّ هو عزّ وجلّ. وكان الله تعالى دائماً وأبداً عزيزاً في ملكه،حكيماً في صنعه.

(٢)

" أرسل الله تعالى محمّداً ﷺ ليؤمن النّاس،وثواب الموفين بالعهد،وعذاب الناكثين له كالمخلّفين من الأعراب الحريصين على المغانم فعليهم تلبية نداء الجهاد "

الآيات (٨ - ١٧)

أهمّ سببٍ وراء الموقف المناوئ للنّبيّ ﷺ من قِبَل كفّار قريش؛ أنّهم ينكرون رسالته عليه الصّلاة والسّلام . وها هي ذى السورة الكريمة تبيّن في العديد من المواضع أنّ محمّداً ﷺ رسول الله. إنّا أرسلناك أيها الرّسول الكريم والنبي العظيم شاهداً على أمتك بأنّك بلّغت الرّسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمّة، ومبشراً من أطاعك بالنعيم المقيم في جنّات عدن ، ومنذراً من عصاك بالعذاب الأليم، في نار الجحيم. إنّا أرسلناك

يا محمّد لتؤمنوا أيّها النّاس بالله تعالى، وبرسوله ﷺ وتنصروا الله تعالى، وتبجّلوه وتسبحوه في كلّ الأوقات والأحوال، فما أيسر التسبيح بحمد الله تعالى وذكر الله تعالى عموماً بالقلب واللّسان والجوارح وما أسهل كل ذلك.

وفى مقابل المشركين الّذين أصرّو على ألاّ يعتمر النّبيّ ﷺ والمؤمنون ذلك العام، بباعث الأنفة الجاهلّية، هنالك المؤمنون الّذين بايعوا النّبيّ ﷺ أثناء صلح الحديبية. إنّ الّذين يبايعونك أيّها الرّسول الكريم والنبي العظيم إنما يبايعون الله تعالى على الحقيقة، لأنه عزّ وجلّ هو الّذي أوحى إليك بالصّلح وكتابة الوثيقة. يد الله تعالى فوق أيدي المؤمنين، لأنّ تلك البيعة قد رضي الله عزّ و جلّ عنها وعن أصحابها. إن من نكث البيعة فإنّما ينكث على نفسه، لأن وبال عدم الوفاء بالعهد مرتدّ إليه. ومَنْ أوفى بما عاهد الله تعالى عليه من عدم الفرار ساعة لقاء العدوّ فسيؤتيه الله تعالى أجراً عظيماً يوم القيامة. ويلحق بالفريق ناكث العهد المتخلّفين عن النّبي ﷺ من الأعراب حول المدينة المنوّرة الّذين يقولون شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الخروج معك يا محمّد فاستغفر الله تعالى لنا. إنهم بطلبهم الاستغفار لهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لأنهم يسألون الاستغفار بغير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من تفريطٍ في جنب الله تعالى . قل يا محمد لهم : هب أني استغفرت الله تعالى لذنوبكم فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً إن أراد بكم ضرّاً وشرّاً أو أراد بكم نفعاً وخيراً. الحقيقة إنّ الله تعالى كان دائماً وأبداً بما تعملون خبيراً، فلم تَشْغَلْكم أموالكم وأولادكم كما زعمتم، والحقيقة أنّكم ظننتم أن لن يعود الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزيّن الشيطان الرّجيم والنفس الأمّارة بالسّوء ذلك الظّنّ السيّئ في قلوبكم، وكنتم قوماً هلكى بسبب بعدكم عن الله تعالى ومن لم يؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ فإنّا أعددنا للكافرين ناراً مشتعلة يدخلونها يوم القيامة. ولله تعالى ملك السّماوات والأرض وما بينهما، يغفر لمن يشاء

ويعذب من يشاء. وكان الله تعالى غفور ذنب من تاب وأناب، رحيماً لا يعذب من تاب وقبل توبته سبحانه.

سيقول المخلفون عن عمرة الحديبية من الأعراب، إذا انطلقتم أيها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ إلى مغانم في خيبر لتأخذوها اسمحوا لنا أن نتّبعكم ونأخذ حظنا من الغنيمة، يريدون أن يبدّلوا كلام الله تعالى بأن تكون غنيمة خيبر خاصة بمن شهد الحديبية. قل لهم يا محمد : لن تتّبعونا فقد قال الله تعالى ذلك من قبل. فسيقولون : الحقيقةإنكم تحسدوننا و لم يقل الله تعالى ذلك . الحقيقة يا محمد إنّ القوم لا يفقهون إلا قليلاً ممّا يقال لهم فاتركهم.

قل يا محمّد لأولئك المخلفين عن عمرة الحديبية من الأعراب الحريصين على غنيمة خيبر، ستُدْعون إلى قتال قوم أولي بأسٍ شديدٍ وبطشٍ أكيد، تقاتلونهم أو يسلمون، فيشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله. فإن تطيعوا وتجاهدوا في سبيل الله تعالى يؤتكم الله تعالى أجراً حسناً في الأولى والآخرة. وإن تتولوا كما توليتم من قبل، يعذبكم عذاباً أليماً في الأولى والآخرة، إن على الجميع أن يلبّي نداء الجهاد مادام قادراً عليه ويُسْتَثْنَى أولو الأعذار.إنه ليس على الأعمى ذنب ولا ضيق لعجزه عن الجهاد، ولا على الأعرج، ولا على المريض، لأنهم جميعاً من أولي الأعذار، ومن يطع الله ورسوله بقدر الاستطاعة يدخله الله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومن يتولّ ويَعْصِ الله تعالى يعذبه عذاباً أليماً.

وفي الشّقّ الآخر من السّورة الكريمة يكون الحديث غالباً عن المصطفى ﷺ والمؤمنين وبيعة الرّضوان وما وعد الله تعالى به من نصرٍ للإسلام والمسلمين.

(٣)

" لقد رضي الله تعالى عن أصحاب بيعة الرّضوان فأنزل الطّمأنينة عليهم، ووعدهم مغانم كثيرة، وعجّل لهم فتح خيبر، وهيأ لهم أسباب فتح مكّة، ووعدهم بالنصر المبين على الكافرين أصحاب الحمّية الجاهلية "

الآيات (١٨-٢٦)

لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك يا محمّد في عمرة الحديبية تحت شجرة السَّمُر، فعلم ما في قلوبهم من إيمان صادق فأنزل الطمأنينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً هو فتح خيبر الذي كانّ في الحرم من سنة سبع ، وأثابهم مغانم كثيرة يأخذونها مستقبلاً. وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه . ووعدكم الله تعالى يا أيّها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها، فعجل لكم هذه الغنيمة بفتح خيبر ، وكفّ أيدي الأعداء عن أهليكم وذراريكم الذين تركتموهم خلفكم، وانطلقتم مجاهدين في سبيل الله تعالى لا تَلْوون على أحد ، ولتكون نعمة كفّ أيدي الأعداء عن الأهل والذّرّيّة آيةً للمؤمنين بأنّ الله تعالى هو مولاهم، وأنّ الكافرين لا مولى لهم، وليهديكم الله تعالى صراطاً مستقيماً موصلاً إلى جنّات النّعيم. وثمّة مدينةً أخرى لم تقدروا على فتحها هي مكّة المكّرمة قد أحاط الله تعالى بأحوالها علماً، وبأسباب فتحها خُبْرا فاصبروا. وكان الله تعالى على كلّ شيء قديراً.

ولو قاتلكم الّذين كفروا في الحديبية لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولّياً يتولّى مصالحهم، ولا نصيراً يأخذ بأيديهم . سنّ الله تعالى تلك السّنة التي مضت من قبل. ولن تجد أيها الإنسان لسنة الله تعالى تبديلاً ولا تغييراً. إنه هو الله تعالى الّذي كف أيدي المشركين عنكم أيّها المؤمنون، وأيديكم عنهم ببطن مكة في الحديبية من بعد أن أظفركم عليهم فأسرتم طلائعهم ومننتم عليهم. وكان الله تعالى بما تعملون بصيراً.

إنهم هم الذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، وصدوكم أيها المؤمنون عن المسجد الحرام في الحديبية، وصدّوا الهدى محبوساً عن أن يبلغ المحلّ الذي ينبغي نحره فيه وذبحه وهو الحرم. ولولا رجال مؤمنون ونساءٌ مؤمنات في الحرم لم تعلموهم أن تطئوهم بخيلكم فتصيبكم منهم مساءة بغير علمٍ منكم لأَذِنَ الله تعالى لكم في الفتح لكن لم يؤذن فيه حينئذ إن الله تعالى لم يأذن بالفتح ليدخل عزّ وجلّ في رحمته من يشاء من المشركين، فيشرح صدورهم للإسلام. لو تميز المؤمنون عن الكافرين لعذّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً بأيدي المؤمنين، حين جعل الكافرون في قلوبهم أَنَفة الجاهليّة ونَعْرتها وعنجهيّتها، فأنزل الله تعالى سكينته وطمأنينته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى وهي شهادة ألاّ إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وكانوا أحقّ بكلمة التقوى وأهلها الذين يدركون معناها ومغزاها. وكان الله تعالى بكل شيءٍ عليمًا ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيء في الأرض ولا في السّماء.

(٤)

" لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا بدخول المسجد الحرام، وصدق الله تعالى بإظهار دين الإسلام على الدين كله، وصفة الصحابة رضوان الله عليهم في التوراة والإنجيل"

الآيات (٢٧ – ٢٩)

لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا التي رآها بالحق . وكان علية الصّلاة والسّلام رأى في المنام أنّه دَخَلَ مكّة المكرّمة وطاف بالبيت الحرام وأخبر بها الصحابة رضوان الله عليهم . شاء الله تعالى أن تتحقق الرّؤيا في العام القادم وليس في ذلك العام. وإنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين سوف يدخلون المسجد الحرام – إن شاء الله – تعالى آمنين مطمئنين محلّقين رؤوسهم بعد أداء النسك ومقصرين شعورهم لا يخافون إلا الله تعالى، لقد علم الله تعالى من المصلحة في ذلك ما لم يعلم البشر فجعل عزّ وجلّ قبل تأويل الرّؤيا فتحاً قريباً هو فتح خيبر. وليس يخفى أن الآية الكريمة من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب، وكذلك الآية الكريمة التالية. إن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل رسوله محمّداً ﷺ بالهدى من الضلالة وبدين الإسلام الحقّ ليظهره عزّ وجلّ على الدين كلّه ، السّماويّ ومن باب الأحرى غير السّماويّ . وهذة الحقيقة تزداد نصوعاً بمرور الليالي والأيام، الشهور والأعوام، القرون والأزمان، ولله الحمد و المنّة.

وليس يخفى نعت السورة الكريمة المصطفى ﷺ بأنّه رسول الله تعالى، وبخاصة الآيات الكريمات الثلاث التي يتألف منها هذا القسم الأخير من السورة الكريمة.

إنّ محمّداً ﷺ هو رسول الله تعالى. والّذين معه ﷺ من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أشداء على الكفّار رحماء بينهم، تراهم أيّها الإنسان ركّعاً سجّداً في الصلوات ، فرضها ونفلها، يبتغون بصلاتهم، وهي عماد الدين، فضلاً من الله تعالى ورضواناً عليهم منه عز وجل. علامتهم في وجوههم النيرة المشرقة من أثر السجود في الصلاة وتلاوة القرآن الكريم وما إلى ذلك، ومعروف أنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه عز و جلّ وهو ساجد، وأنّ إقامة الصّلاة وهي عماد الدين مظنّة قيام العبد بسائر الأركان والواجبات والسُنن. ذلك المذكور نعت الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في التوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسّلام وهكذا يجيء نعت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في توراة موسى عليه الصلاة والسلام دليلاً على احتفاء السّماء بهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

وكما جاء نعت الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في التوراة جاء نعتهم في الإنجيل الذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى علية السلام.

إن نعت الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه، وأنبت فراخه على جوانبه وأغصانه، فآزر الشّطءُ الزّرع وقوّى الفراخُ النّبت فاستغلظ الزّرع، وغلُظ النّبت، فقام على سوقه، واستوى على أصوله. يُعْجب ذلك الزّراع الذّين حرثوا وبذروا وسَقوْا وعُنوا به. وكما أعجب الزّرعُ الزّرّاع، أعجب المؤمنون الذين نَموا بفضل الله تعالى كما نما ذلك الزرع كلَّ المؤمنين الذين يجتهدون كي يظهر دين الإسلام على الدين كله، وفى ذلك إغاظة شديدة للكافرين. والله سبحانه وتعالى وَعد

ووعده الحق، بأن يثيب الّذين آمنوا وعملوا الصالحات من الصّحابة وغيرهم مغفرة لذنوبهم، وأجراً عظيماً لحسناتهم في جنّات النعيم المقيم.

التفسير

(١)

" إنا فتحنا لك يا محمد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك من شكر لله تعالى،وليقوم المؤمنون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى فيثيبهم ، وليعذّب المنافقين والمشركين "

الآيات (١ - ٧)

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً : الفتح الذي وعد الله جلّ ثناؤه نبيّه ﷺ هذه العِدة على شكره إياه عليه فإنّه فيما ذكر الهدنة التي جرت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش بالحديبيّة. وذكر أنّ هذه السّورة أنزلت على رسول الله ﷺ منصرفه عن الحديّبية بعد الهدنةُ التي جرت بينه وبين قومه[1] عن جابر بن عبد الله قال : ما كنّا نعدّ الفتح إلاّ يوم الحديبية[2] وعن البراء بن عازب قال : تعدّون أنتم الفتح فتح مكّة. وقد كان فتح مكّة فتحاً. ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان يوم الحديبية[3] وتهذيب الأسماء واللّغات ١٣٢/١ .

ولّما كانت سورة الفتح المدنّية الكريمة تدور حول صلح الحديبية وملابساته، فإنّا نودّ أن نتّخذ واحداً من النّصوص المعتمدة الموثّقة المنطلق لشرح ملابسات هذه القضيّة التي تتحدّث فيها سورة الفتح الكريمة . وما أكثر النّصوص المعتمدة الموثقة في هذه القضيّة وملابساتها ، وليكن النّصّ المختار من صحيح البخاري. وبالإضافة إلى كون النّص يميل بطبعه إلى الطّول النّسبيّ بسبب الملابسات المتشعبة لفتح الحديبية المبين، فإنّا وراء ذلك سنستأنس في شرح النّصّ ببعض الاقتباسات من نصوص أخرى مكملة للنّصّ المذكور، حرصاً على عموم الفائدة بإذن الله تعالى. وسوف نقتصر في الشرح على الأمور الضّروريّة توخياً للإيجاز ما أمكن .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٦ / ٤٣ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٠٧ وفتح الباري ٨ / ٥٨٣ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٦ / ٤٤ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٠٧

(٣) تفسير الطّبري ٢٦ / ٤٤

روى البخاريّ في صحيحه[1] عن المسْور بن مخرمة ومروان بن الحكم[2] يصدّق كلّ واحدٍ منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الُحَديْبيه[3] حتّى إذا كانوا ببعض الطّريق قال النّبيّ ﷺ : إنّ خالد بن الوليد بالغميم[4] في خيلٍ لقريش طليعة[5] فخذوا ذات اليمين. فوا الله ما شَعَر بهم خالدٌ حتّى إذاهم بقَتَرة[6] الجيش. فانطلق يركض نذيراً لقريش. وسار النّبيّ ﷺ ، حتّى إذا كان بالثّنيّة التي يُهْبط عليهم منها بركت به راحلته فقال النّاس: حَلْ حَلْ[7]، فألّحت [8] فقالوا خَلأت القَصْواء[9] فقال النّبيّ ﷺ : ما خلأت القَصْواء وما ذاك لها بخُلُق[10] ولكن حبسها حابس الفيل[11] ثمّ قال : والّذي نفسي بيده لا يسألونني خُطّةً [12] يعظّمون فيها حرمات الله[13]

---

[1] فتح البارى٥/٣٢٩ حديث رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢ باب الشّروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط . وفى فتح البارى ٧/٤٣٩-٤٥٨ باب غزوة الحديبية و٨/٥٨١-٥٨٩ تفسير سورة الفتح

[2] فتح البارى ٥/٣٣٣

[3] الحديبية قرية قريبة من مكّة أكثرها فى الحرم سمّيت باسم بئر . وقد خرج النّبىّ ﷺ من المدينة المنوّرة يوم الأثنين لهلال ذى القعدة يريد زيارة البيت لأداء العمرة ولا يريد قتالاً . فتح ٥/٣٣٤ وذلك سنة ستّ .

[4] الغميم : قريب من مكان بين رابغ والجحفة بين مكّة والمدينة فتح ٥/٣٣٥

[5] فى مائتي فارس فيهم عكرمة بن أبى جهل فتح ٥/٣٣٥

[6] القترة بفتح القاف والمثنّاة الغبار الأسود فتح ٥/٣٣٥

[7] حل حل بفتح المهملة وسكون اللّام كلمة تقال للنّاقة إذا تركت السّير . فتح ٥/٣٣٥

[8] فألحّت : تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح . فتح ٥/٣٣٥

[9] الخلاء بالمعجمة والمدّ للإبل كالحران للخيل . ولا يكون الخلاء إلاّ للنوق خاصّة . والقصْواء اسم ناقة رسول الله ﷺ . فتح ٥/٣٣٥

[10] وما ذاك لها بخلق : أي بعادة . فتح ٥/٣٣٥

[11] أي حبسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكّة كما حبس الفيل عن دخولها وكان بمكة فى الحديبية جمع كثير مؤمنون من المستضعفين. فتح ٥/٣٣٦

[12] خطّة : بضم الخاء المعجمة أي خصلة . فتح ٥/٣٣٦

[13] أي من ترك القتال فى الحرم . فتح ٥/٣٣٦

إلاّ أعطيتهم إيّاها. ثمّ زجرها فوثبت[1] قال : فعدل عنهم حتّى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[2] قليل الماء يتبرّضه النّاس تبرُّضاً [3] فلم يلبّثه[4] النّاس حتّى نزحوه[5]. وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته[6] ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فو الله ما زال يجيش لهم[7] بالرِّيّ[8] حتّى صدروا عنه[9] فبينهما هم كذلك إذا جاء بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي في نفر من قومة خزاعة. وكانوا عَيْبَةَ نُصْح[10] رسول الله ﷺ من أهل تهامة[11] فقال : إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ[12] نزلوا أعداد مياه الحديبية[13] ومعهم العُوذ

---

(١) ثمّ زجر ﷺ النّاقة فقامت . فتح ٣٦٦/٥

(٢) على ثمد ، بفتح المثلثة والميم أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل . فتح ٥ /٣٣٦

(٣) أي يأخذه الناس قليلاً قليلاً . والبَرْض بالفتح والسّكون اليسير من العطاء . فتح ٣٣٧/٥

(٤) فلم يتركه النّس يلبث أي يقيم . فتح ٣٣٧/٥

(٥) النزح أخذ الماء شيئًا بعد شيء إلى أن لا يبقى منه شيء . فتح ٤٤٢/٧

(٦) أى أخرج سهماً من جعبته فتح ٣٣٧/٥ وهي وعاء السهام والنّبال .

(٧) يجيش لهم : يفور لهم . فتح ٣٣٧/٥ .

(٨) بالرّيّ : بكسر الرّاء ويجوز فتحها .فتح ٣٣٧/٥ .

(٩) أي رجعوا رِواءً بعد وردهم . وزاد ابن سعد : حتّى اغترفوا بآنيتهم جلوساً على شفيرالبئر . فتح ٣٣٧/٥ ورواء بكسر الراء جمع ريّان للمذكر وريّا وريّانه للمؤنث. والورد بكسر الواو والإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله .

(١٠) العَيْبه بفتح المهملة وسكون التّحتانيّة بعدها موحّدة ماتوضع فيه الثّياب لحفظها . أي أنهم موضع النّصح له والأمانة على سرّه . فتح ٣٣٨/٥ .

(١١) أرض منخفضة بين ساحل البحر وبين الجبال فى الحجاز واليمن .

(١٢) هما الصّريحان من قريش لا شك فيهما . وهم قريش البطاح . فتح ٣٣٨/٥ .

(١٣) الأعداد بالفتح جمع عِدّ بالكسر والتّشديد وهو الماء الّذى لا انقطاع له . وقول بديل هذا يشعر بأنّه كان بالحديبية مياه كثيرة وأنّ قريشاً سبقوا إلى النّزول عليها فلهذا عطش المسلمون حيث نزلوا على الثمد المذكور . فتح ٣٣٨/٥ .

المطافيل[1] وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ : إنّا لم نجىء لقتال أحدٍ ولكنّا جئنا معتمرين. وإنّ قريشاً قد نَهكتهم[2] الحرب وأخرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم[3] مدّةً ويُخَلُّوا بيني وبين النّاس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلاّ فقد جَمُّوا[4] وإن هم أَبَوْا فو الّذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي[5] ولينفذنّ الله أمره. فقال بديل : سأبلغهم ما تقول. قال فانطلق حتّى أتى قريشاً قال : إنا جئناكم من هذا الرّجل وسمعناه يقول قولاً. فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء . وقال ذوو الرّأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النّبيّ ﷺ. فقام عروة بن مسعود [6] فقال أيْ [7] قوم . ألستم بالوالد[8] ؟ قالوا بلى. قال : أولستُ بالولد ؟[9] قالوا : بلى. قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا. قال : ألستم تعلمون أنّى استنفرت أهل عكاظ[10] فلمّا

---

(١) العُوذ جمع عائذ وهي النّاقة ذات اللّبن ، والمطافيل الأمّهات اللّاتى معها أطفالها يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتّى يمنعوه . فتح ٣٣٨/٥ .

(٢) بفتح أوّله وكسر الهاء : أي أبلغت فيهم حتّى أضعفتهم . فتح ٣٣٨/٥ .

(٣) أي جعلت بيني وبينهم مدّة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها . ٣٣٨/٥ .

(٤) بفتح الجيم وتشديد الميم المضمومة أي إستراحوا وقوُوا . فتح ٣٨٨/٥ .

(٥) السالفة بالمهملة وكسر اللّام بعدها فاء : صفحة العنق . يحتمل أن يكون أراد أنّه يقاتل حتّى ينفرد وحده فى مقاتلتهم . فتح ٣٣٨/٥ .

(٦) الثقفي . فتح ٣٣٩/٥ .

(٧) أي حرف نداء . أي يا قوم .

(٨) أراد بقوله : ألستم بالوالد : أنّكم حيٌّ قد ولدوني فى الجملة لكون أمي منكم . فتح ٣٣٩/٥ .

(٩) الّذى وقع فى رواية أخرى : ألستم بالولد والست بالوالد ؟ قالو بلى . فتح ٣٣٩/٥ .

(١٠) بضم المهملة وتخفيف الكاف وآخره معجمة أي دعوتهم إلى نصركم . فتح ٣٣٩/٥ .

تلحوا[1] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا بلى. قال : فإنّ هذا قد عرض عليكم خُطّة رُشْد[2] اقبلوها ودعوني آته.قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النّبيّ ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك : أيْ محمّد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح[3] أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى[4] فإنّي والله لا أرى وجوهًا، وإنّي لأرى أشواباً[5] من النّاس خليقًا[6] أن يفرّوا ويَدَعوك[7] فقال له أبو بكر : امصص بَظْر اللّات[8] أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر. قال : أما والّذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك[9] قال وجعل يكلّم النّبيّ ﷺ فكلّما تكلّم كلمةً أخذ بلحيته[10] والمغيرة ابن

---

[1] بالموحّدة وتشديد اللام المفتوحين ثمّ مهملة مضمومة أي إمتنعوا . فتح ٥/٣٣٩ .

[2] خطّة بضمّ أنحاء المعجمة وتشديد المهملة . والرّشد بضمّ الرّاء وسكون المعجمة وبفتحهما ، أي خصلة خير وصلاح وإنصاف . فتح ٥/٣٣٩ .

[3] بجيم ثمّ مهملة أي أهلك أصله بالكلية . فتح ٥/٣٤٠ .

[4] تأدّباً مع النّبيّ ﷺ. والمعنى وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك مثلاً . فتح ٥/٣٤٠

[5] أخلاطاً من أنواع شتىّ . وفى روايةٍ أخرى أو باشاً ، وهم الأخلاط من السّفْلة . فَالأوباش أخصّ من الأشواب . فتح ٥/٣٤٠ .

[6] بانحاء المعجمة والقاف ، أي حقيقاً وزناً ومعنى . فتح ٥/٣٤٠ .

[7] بفتح الدال أي يتركوك . فتح ٥/٣٤٠ .

[8] البظر بفتح الموحّدة وسكون المعجمة قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرآة . واللّات اسم أحد الأصنام الّتى كانت قريش وثقيف يعبدونها . وكانت عادة العرب الشّتم بذلك لكن بلفظ الأمّ فأراد أبو بكر المبالغة. فتح ٥/٣٤٠ .

[9] لولا نعمة كانت لك لم أكافئك بها . أي جازاه بعدم إجابته عن شتمه بيده الّتي كان أحسن إليه بها ، وكان أعانه فى دية . فتح ٥/٣٤٠ .

[10] كانت عادة العرب أن يتناول الرّجل لحية من يكلّمه ولا سيّما عند الملاطفة . وفى الغالب إنما يصنع ذلك النّظير بالنّظير. لكن كان النّبيّ ﷺ يغض لعروة عن ذلك استمالةً له وتأليفاً. والمغيرة يمنعه إجلالاً للنّبيّ ﷺ وتعظيماً . فتح ٥/٣٤١ .

شعبة[1] قائمٌ على رأس النّبيّ ﷺ ومعه السّيف وعليه المِغْفَر[2] فكلّما أهوى[3] عروة بيده إلى لحية النّبيّ ﷺ ضرب يده بنعل السّيف[4] وقال له : أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه فقال : مَنْ هذا؟ قال : المغيرة بن شعبة. فقال أي غُدَر[5] ألستُ أسعى في غدرتك[6] وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم ثمّ جاء فأسلم. فقال النّبيّ ﷺ أمّا الإسلامَ فأقبل، وأمّا المالَ فلست منه في شيء. ثمّ إنّ عروة جعل يَرْمُق أصحاب النّبيّ ﷺ بعينيه. قال : فو الله ما تنخّم رسول الله ﷺ نُخامةً إلاّ وقعت في كفّ رجلٍ منهم فدلك بها وجه وجلْده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه[7] وإذا تكلّموا خفضوا لأصواتهم عنده. وما يُحِدّون إليه النّظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنّجاشي[8] والله إن[9] رأيت مليكاً قطّ يعّظمه أصحابه ما يعّظم أصحاب محمد ﷺ محّمداً. والله إن ينتخّم نُخامةً إلاّ وقعت في كَفّ رجلٍ منهم فَدَلَكَ بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضّأ كادوا يقتتلون

---

(1) الثقفى .تهذيب الأسماء واللغات للنّووى ١٠٩/٢٧ وروي أنّ المغيرة لما رأى عروة بن مسعود الثقفي مقبلاً لبس لأمته وجعل على رأسه المغفر ليستخفي من عروة عمّه . فتح ٣٤١/٥ .

(2) زادٌ يُنْسج من الدّروع على قدر الرّأس يُلْبَس تحت القانسوة .

(3) أهوى بيده للشيء مدّها .

(4) ما يكون أسفل القِراب من فضّة أو غيرها . والقراب بكسر القاف غمد السّيف .

(5) بوزن عمر معدول عن غادر مبالغة فى وصفه بالغدر . فتح ٣٤١/٥ .

(6) ألست أسعى فى دفع شر غدرتك؟ وكان قبل إسلامة غدر بثلاثة عشر نفراً من ثقيف قتلهم وأخذ أموالهم فسعى عروة بن مسعود عمّ المغيرة حتّى أخذوا منه دية ثلاثة عشر نفراً واصطلحوا فتح ٣٤١/٥ .

(7) الوضوء بفتح الواو الماء يتوَضّأ به .

(8) ذكر الثّلاثة لكونهم كانوا أعظم ملوك ذلك الزّمان . فتح ٣٤١/٥ .

(9) إن رأيت : ما رأيت ، فإن هنا نافية .

على وَضوئه وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده. وما يُحِدّون إليه النّظر تعظيماً له وإنّه قد عرض عليكم خُطّة رُشْدٍ فاقبلوها. فقال رجلُ من بنى كنانة : دعوني آتيه. فقالوا ائته. فلّما أشرف على النّبيّ ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : هذا فلان، وهو من قومٍ يعظمون البُدْن[1] فابعثوها له[2] فَبُعِثَتْ له، واستقبله النّاسُ يلَبُّون. فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أنّ يُصَدُّوا عن البيت. فلّما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البُدْن قد قُلّدت[3]، وأُشْعِرَت[4] فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقام رجلٌ منهم يقال له مكَرز بن حفص فقال : دعوني آته. فقالوا : ائته. فلمّا أشرف عليهم قال النّبي ﷺ هذا مكرَز، وهو رجلٌ فاجر[5] فجعل يكلم النّبيّ ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال مَعْمَر : فأخبرني أيّوب عن عكرمة أنّه لّما جاء سهيل بن عمرو وقال النّبيّ ﷺ : قد سَهُلَ لكم من أمركم . قال معمر قال الزُّهَريّ في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النّبيّ ﷺ الكاتب[6] فقال النّبيّ ﷺ : بسم الله الرّحمن الرّحيم. فقال سهيل : أمّا : الرّحمن ، فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب : باسمك اللهم، كما كنت تكتب قال المسلمون: والله لانكتبها إلا : بسم الله الرحمن الرحيم. فقال قال النّبيّ ﷺ اكتب : باسمك اللهمّ. ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما

---

(١) البُدْن بسكون الدّال وضمّها جمع البَدَنه وهي الناقة أو البقرة تُنحر بمكّة قرباناً .

(٢) أثيروها دفعةً واحدة . فتح ٥/٣٤٢ .

(٣) عُلّق فى عنقها شيءُ كالقلادة لُيعْلَم أنّها هَدْي .

(٤) الإشعار : الإعلام . وأشعر البدنه أعلمها بأن طعن فى سنا مهما الأيمن حتّى يظهر الدّم ويُعْرف أنّها هدي. لسان العرب : ((شعر))

(٥) أراد أن يبيت المسلمين بالحديبية فخرج في خمسين رجلاً فأخذهم محمد بن مسلمة وهو على الحرس وانفلت منهم مكرز ، فتح ٥ / ٣٤٢

(٦) هو علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فتح ٥ / ٣٤٣ .

صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب : محمّد بن عبد الله. فقال النّبيّ ﷺ : والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني. اكتب : محمّد بن عبد الله. قال الزّهريّ : وذلك قوله : لا يسألونني خطّةً يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاها. فقال له النّبيّ ﷺ: على أن تُخَلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل : والله لا تتحدّث العرب أنّا أُخذْنا ضُغْطة[1]، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب . فقال سهيل : وعلى أنّه لا يأتيك منّا رجل - وإن كان على دينك - إلاّ رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله ، كيف يُرَدّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك؛ إذ دخل أبو جَنْدل ابن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل : هذا يا محمّد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إلّي. فقال النّبيّ ﷺ إنّا لم نقض الكتاب بعد. قال : فوالله إذاً لم أصالحك على شيءٍ أبدا . قال النّبيّ ﷺ : فأجزه لي. قال : ما أنا بمجيزِه لك. قال بلى فافعل قال ما أنا بفاعل. قال مكرز : بل قد أجزناه لك. قال أبو جَنْدل : أيْ معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله. قال فقال عمر بن الخطّاب : فأتيت نبيّ الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيّ الله حقّا ؟ قال : بلى. قلت : ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل ؟ قال : بلى. قلت : فلم نُعْطى الدّنّية في ديننا إذاً؟ قال : إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت : أَوَليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال : بلى: فأخبرتك أنّا نأتيه العام ؟ قال قلت : لا . قال فإنّك آتيه ومطوِّفٌ به. قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر فقلت أليس هذا نبّي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوُّنا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلِمَ

---

[1] بضم الضّاد وسكون الغين المعجمتين ثّم طاء مهملة أي قهرا . فتح ٣٤٣/٥ .
ومن شروط الصّلح وضع الحرب عن النّاس عشر سنين . السّيرة ٣٣٢/٣ .

نُعْطِي الدّنيّة في ديننا إذاً ؟ قال : أيّها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ وليس يَعصِي ربَّه، وهو ناصره فاستمسك بغرْزه[1]، فو الله إنه على الحقّ ، قلت: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي إلى البيت ونطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرك أنّك تأتيه العام ؟ قلت لا. قال فإنّك آتيه ومطوِّفٌ به . قال الزّهريّ قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً [2] قال: فلما فَرَغَ من قضيَة الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثمّ احلقوا. قال فو الله ما قام منهم رجل، حتّى قال ذلك ثلاث مرّات . فلما لم يقم منهم أحد دخل على أمّ سلمة فذكر لها ما لقي من النّاس ، فقالت أمّ سلمة : يا نبّيّ الله أتحبّ ذلك ؟ أخرج ثمّ لا تكلّم أحداً منهم كلمةً حتّى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتّى فعل ذلك. نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلمّا رأو ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّا. ثمّ جاءه نسوةٌ مؤمناتٌ فأنزل الله تعالى[3] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ـــ حتى بلغ ـ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلّق عمر يومئذٍ أمرأتين كانتا له في الشّرْكَ، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أميّة. ثمّ رجع النّبيّ ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم . فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العَهْدَ الّذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرّجلين ، فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله لأرى سيفك هذا يا فلان جيّدًا، فاستلّه

---

[1] بفتح العين المعجمة وسكون الرّاء بعدها زاي : ركاب الرّحل من جلدٍ مخروز يعتمد عليه فى الركوب . المعجم الوسيط . والغرز للإبل بمنزلة الرّكب للفرس ، والمراد به التّمسّك بأمره وترك المخالفة له كالّذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه . انظر فتح الباري ٣٤٦/٥ .

[2] فى رواية ابن إسحاق : وكان عمر يقول : مازلت أتصدّق وأصوم وأصلّى وأعتق من الّذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الّذى تكلّمت به . فتح ٣٤٦/٥ .

[3] سورة الممتحنة : ١

الآخر فقال أجل والله إنّه لجيد، لقد جرّبت به ثمّ جرّبت به ثمّ جرّبت. فقال أبو نصير أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتّى بَرَد[1]، وفر الآخر حتّى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذُعرًا[2] فلّما انتهى إلى النّبيّ ﷺ قال : قُتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال : يا نبيّ الله : قد والله أوفى الله ذمّتك، قد رددتني إليهم ثمّ أنجاني الله منهم. قال النّبيّ ﷺ ويل امّه[3] مِسْعَرَ[4] حربٍ لو كان معه أحد[5] فلّما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتّى أتى سِيف البحر[6] قال : وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، حتّى اجتمعت منهم عِصابة[7] فوالله ما يسمعون بعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشّام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النّبيّ به ﷺ تناشده الله والرّحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النّبيّ ﷺ إليهم. فأنزل الله تعالى[8] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ - حتى بلغ - ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ .

---

[1] بفتح الموحّدة والرّاء أي خمدت حواسّه وهي كناية عن الموت . فتح ٣٤٩/٥ .

[2] أي خوفاً . فتح ٣٤٩/٥ .

[3] هي كلمةٌ تقولها العرب فى المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذّمّ ، لأنّ الويل الهلاك . فتح ٣٥٠/٥ .

[4] بكسر الميم وسكون المهملة وفتح العين المهملة وبالنّصب على التّمييز ، وأصلة : من مسعر حرب ، أي يسعرها . والمسعر العود الّذى يحرّك به النّار . فتح ٣٥٠/٥ .

[5] رواية السّيرة ٣٣٨/٣ : " ويل أمّه محِشّ حربٍ لو كان معه رجال " والمحِشّ هو المسعر والعود الذى يحرك به النار .

[6] بكسر المهملة وسكون التّحتانيّة بعدها فاء بمعنى ساحل . فتح ٣٥٠/٥ .

[7] أى جماعة ولا واحد لها من لفظها . فتح ٣٥٠/٥ .

[8] سورة الفتح ٢٤ - ٢٦ .

وكانت حمّيتهم أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ الله، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرّحيم وحالوا بينه وبين البيت.

وعلى الرّغم من الطول النّسبيّ للنّصّ السّابق من صحيح البخاريّ فإنّ ثمّة العديد من المسائل المتعلقة بصلح الحديبية قد تجاوزها النّصّ وجاءت في مواضع أخرى من الصّحيح أو من غيره. وبإذن الله تعالى سوف يتم الإيماء إلى بعض تلك النصوص حين الحاجة لذلك في أثناء التفسير. والله تعالى المستعان.

ومعنى الآيات الكريمات الثّلاث الأول من سورة الفتح، والله تعالى أعلم : إنا فتحنا لك يا محمد نصراً مبيناً بصلح الحديبية الّذي أدّى إلى فتح مكة المكرّمة ، فتح الفتوح. وإنّ عليك أيّها الرسول الكريم والنّبيّ العظيم أن تشكر لله تعالى هذا الفتح المبين ليغفر لك ربّك جلّ وعلا ما تقدّم من ذنبك قبل الفتح وما تأخّر بعده، وليتم نعمته عليك حتّى يكمل دين الإسلام الذي أرسلك الله تعالى به، ورضيه لك ولأمتك ، وليهديك ربّك صراطاً مستقيماً ، وطريقاً قويماً ، يفضى بك إلى النّعيم المقيم، في جنّات النّعيم، ولينصرك الله تعالى على عدوّه وعدوّك نصراً غالياً وعزيزاً.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

السكينة : السّكون والطّمأنينة[1]

ليدخل : اللاّم للتّعليل . يدخل : مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام. والمصدر المؤول: أن يدخل في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره أمر الله بالجهاد[2] .

عليهم دائرة السّوء : السّوء مصدر ساءه سَوْءاً، فعل به ما يكره، والاسم السُّوء بالضّمّ [3] ودائرة السّوء دائرة العذاب تدور عليهم به[4] الله تعالى هو الّذي أنزل السّكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين الّذين خرجوا من المدينة المنوّرة في غرّة

---

[1] تفسير الطبرى ٤٥/٢٦ .

[2] أنظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٦٧/١٢ والجلالين .

[3] أنظر لسان العرب : ((سوأ)) .

[4] تفسير الطّبرى ٤٦/٢٦ ولسان العرب : ((سوأ)) .

ذي القعدة سنة ستّ بقيادة المصطفى ﷺ لأداء العمرة فصدّهم مشركو مكّة بعنف وانتهى الأمر بعقد صلح الحديبيّة بين المصطفى ﷺ وبين المشركين. لقد عقد المصطفى ﷺ هذا الصلح بإيحاء من الله تعالى. وبنصّ القرآن الكريم هو فتحٌ مبين. لقد كانت الشّروط في حقيقتها وجوهرها في صالح الإسلام والمسلمين، وإن كانت النظرة العَجْلى ترى غير ذلك. ومن أكبر الأدلّة على أن صلح الحديبية فتح مبني على كثرة الذين دخلوا في الإسلام خلال عامين اثنين فقط من الصلح . إنّ النبي ﷺ كان معه في الحديبية زهاء ألفٍ وأربعمائة شخص بينما كان معه في فتح مكّة في شهر رمضان سنة ثمانٍ عشرة آلاف[1]، لقد أنزل الله تعالى الطّمأنينة في قلوب المؤمنين الّذين ظنّوا أوّل الأمر أنّ شروط الصّلح ليست في صالحهم، وملأ الله تعالى صدورهم بالسّكينة ليزدادوا إيماناً بطاعتهم رسول الله ﷺ طاعةً مطلقة مع إيمانهم السّابق بتوحيد الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ والقرآن الكريم. ولله تعالى جنود السموات والأرض التي لا يعلمها إلاّ هو جلّ وعلا الّذي يقول لكلّ شيءٍ : كن فيكون. وكان الله تعالى عليماً لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، حكيماً في كل شيءٍ من قولٍ وفعل وابتلاءٍ للمؤمنين بجهاد الكافرين لما له جلّ وعلا في ذلك من الحكمة البالغة، والحجّة الدّامغة.

لقد أمر الله تعالى بالجهاد في سبيله عزّ وجلّ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ تجرى من تحت أشجارها وقصورها أنواع الأنهار خالدين فيها، ويكّفر عنهم سيّئاتهم ويغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم، وكان الخلود في جنّات النّعيم فوزاً عظيماً ونجاحاً كبيراً.

لقد أمر الله تعالى بالجهاد في سبيله ليثيب المؤمنين والمؤمنات، وليعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظّانّين بالله تعالى ظنّ السّوْء بأنّ الله تعالى لن ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين. على أولئك المنافقين والمشركين ترتدّ دائرة العذاب وكسر

---

[1] أنظر مثلاً ــ فتح البارى ٤٤٢/٧ والسّيرة ةالنبوية ٣٣٧/٣ .

الشّوكة واستئصال الشّأفة، وغَضِبَ الله تعالى عليهم، وطردهم من رحمتـــه، وأعـــدّلهم عذاب جهنّم يوم القيامة، وساءت مصيراً وعاقبة.

ولله جنود السّماوات والأرض التي لا يعلمها إلاّ هو عزّ وجلّ وحده دون سواه، ولو شاء لأهلك المنافقين والكافرين ببعض تلك الجنود، ولكنّ الله تعالى لـــه الحكمـــة البالغة في تسليط المؤمنين عليهم وابتلاء المؤمنين بهم.

وكان الله تعالى عزيزاً غالباً أعداءه، حكيماً في ابتلاء المؤمنين بالمنافقين والمشركين ليكون الأجر عظيماً وعلى قدر المشقّة والبلاء.

(٢)

" أرسل الله تعالى محمّداً ﷺ ليؤمن النّاس، وثواب الموفين بالعهد، وعذاب الناكثين له كالمخلّفين من الأعراب الحريصين على المغانم فعليهم تلبية نداء الجهاد"

الآيات (٨ - ١٧)

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾

وتعزّروه : وتنصروه[1] والتّعزير : النُّصرة مع التعظيم[2].

وتوقّروه : وتعظموه[3].

إنّا أرسلناك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم شاهداً على أمّتك بتبليغ الرّسالة، وتأدية الأمانة ، والنّصح لها، ومبشّراً المؤمنين بالجنّة ، ومنذراً الكافرين بالنّار.

إنّا أرسلناك يا محّمد لتؤمنوا أيّها النّاس بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، ولتنصروا الله تعالى أيها المؤمنون، ولتعظموه، ولتسبحوه جلّ وعلا في الصباح والمساء ولتنزهوه عزّ وجلّ من كل ما ألحقه به جلّ وعلا الظّالمون، ولتذكروه ليلاً ونهاراً وفى سائر الأوقات. والتّسبيح المنصوص عليه في الآيه الكريمة رمزٌ لكلّ أنواع الذّكر الّذي يوصف دائماً بأنّه كثير، فلا نهاية له ، وذلك لسهولة الذّكر في جُلّ الأوقات وأغلب الأحوال.

---

[1] تفسير الطّبرى ٤٧/٢٦ والجلالين .

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني ((عزر)) ٤٣٣/٢ .

[3] تفسير الطّبرى ٤٧/٢٦ والجلالين .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله : إنّ الّذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألاّيفرّوا عند لقاء العدوّ ولا يولّوهم الأدبار إنما يبايعون ببيعتهم إيّاك الله لأن الله ضَمِنَ لهم الجّنة بوفائهم له بذلك[1] كقوله[2]: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[3].

يد الله فوق أيديهم : أي هو حاضرٌ معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ[4] .

فمن نكث : فمن نكث بيعته إياك يا محمّد ونقضها فلم ينصرك على أعدائك فقد خالف ما وعد ربّه[5].

سبب هذه البيعة التي تسمّى بيعة الرّضوان؛ أنّ النّبيّ ﷺ حينما وصل الحديبية؛ أراد أن يُعْلِم قريشاً أنّه جاء معتمراً وليس محارباً، فأرسل لهذه المهمّة عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الّذي بلّغ أبا سفيان وقريشاً رسالة رسول الله ﷺ وقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال : ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريشٌ عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل . فقال رسول الله ﷺ : لا نبرح مكاننا حتّى نناجز القوم. ودعا رسول الله ﷺ النّاس إلى البيعة،

---

(1) تفسير الطّبرى ٤٧/٢٦ .

(2) سورة النساء ٨٠ .

(3) تفسير ابن كثير ٣١٢/٧ .

(4) تفسير ابن كثير ٣١٢/٧ .

(5) تفسير الطّبرى ٤٨/٢٦ .

فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة، فكان النّاس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ [1]. ثمّ أتى رسول الله ﷺ أنّ الذي كان من أمر عثمان باطل[2] وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى[3] وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : اللهم إنّ عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله. فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم[4].

إنّ الذين يبايعونك يا محمّد من أصحابك على ألاّ يفرّوا أي يعاهدونك على النّصر بإذن الله تعالى أو الشّهادة؛ إنما يبايعون الله تعالى على الحقيقة، لأنّه عزّ وجلّ ضمن لهم الجنّة بوفائهم له بذلك، يد الله تعالى فوق أيديهم بالعون والنُّصْرة والتّأييد، وبالرّضا عنهم والتّوجيه والتّسديد. فمن نكث ما عاهد الله تعالى عليه بواسطة رّسول الله ﷺ ونقض الميثاق مرتدٌّ عليه. ومن أوفى بما عاهد الله تعالى عليه حينما بايع النبي ﷺ على عدم الفرار في قتال الكفار، فإنّ الله تعالى سيؤتيه يوم القيامة أجراً عظيما بالخلود في جنّات النّعيم.

---

[1] انظر تفسير ابن كثير ٣١٤/٧ وفتح البارى ٤٤٩/٧ حديث رقم ٤١٦٩ والسّيرة النّبويّة ٣٣٠/٣ .

[2] انظر تفسير ابن كثير ٣١٤/٧ والسّيّة النّبويّة ٣٣٠/٣ .

[3] تفسير ابن كثير ٣١٥/٧ وأنظر السّيرة النّبويّة ٣٣٠/٣ .

[4] تفسير ابن كثير ٣١٥/٧ .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم : وذلك مسألتهم رسول الله ﷺ الاستغفار لهم يقول : يسألونه بغير توبةٍ منهم ولا ندمٍ على ما سلف منهم من معصية الله في تخلفهم عن صحبة رسول الله ﷺ والمسير معه[1].

قل فمن يملك لكم من الله شيئاً : قل لهؤلاء الأعراب الّذين يسألونك أن تستغفر لهم لتخلّفهم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيّها القوم ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعاً بتثميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الّذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خيرٍ أو شرّ، والله لايعازّه أحد ولا يغالبه غالب[2] ؟

---

[1] تفسير الطّبرى ٤٨/٢٦ .

[2] تفسير الطّبرى ٤٨/٢٦ .

وظننتم ظنّ السَّوْء : وظننتم أنّ الله لن ينصر محمداً ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم وأنّ العدوّ سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم[1].

بورا : هلكى لا يصلحون لشيءٍ من الخير[2] جمع بائر[3].

أعتدنا : أعددنا[4].

سعيرا : ناراً تستعر عليهم في جهنّم إذا وردوها يوم القيامة[5]، والسّعْر التهاب النّار . وقد سَعَرْتها وأسعرتها. والمِسْعر الخشب الّذي يُسْعر به[6].

سيقول لك المخلّفون من الأعراب حول المدينة المنوّرة؛ الّذين استنفرتهم للخروج معك يا محمد في عمرة الحديبية خشية أن تضطر لقتال المشركين لو صدّوك عن المسجد الحرام، وسيتعلّل أولئك المنافقون بالقول لك : شغلتنا أموالنا الّتي نستصلحها ، وأهلونا الّذين نخشى عليهم الأعداء فاستغفر الله لنا يا محمد تقصيرنا في جنب الله تعالى وعدم الخروج معك.

ويلاحظ أنّنا بصدد معنيين اثنين، الاعتذار عن عدم الخروج مع النّبيّ ﷺ ، وطلبهم من النّبيّ ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يغفر لهم. وسنتبين أنّ المعنى الآخر هو الذي يتمّ الحديث عنه ابتداءً ، ثمّ يتحوّل الحديث بعد ذلك إلى المعنى الأوّل. وهذه. الظّاهرة الأسلوبيّة لافتةٌ للانتباه في السّورة الكريمة.

---

[1] تفسير الطّبرى ٤٩/٢٦ .

[2] تفسير الطّبرى ٤٩/٢٦ .

[3] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " بور" ٨٤/١ .

[4] تفسير الطّبري ٤٩/٢٦ .

[5] تفسير الطّبري ٤٩/٢٦ .

[6] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " سعر" ٨٤/١ .

إنّ المنافقين في سؤالهم النّبيّ ﷺ أنّ يستغفر الله تعالى لهم إنّما يقولون ذلك بألسنتهم، وليس ذلك السّؤال نابعاً من أعماق قلوبهم لأنّهم كافرون على الحقيقة. وإنّ الحقّ جلّ وعلا ليأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المنافقين الذين طلبوا منه ﷺ أن يستغفر الله تعالى لهم : هب أنّي استغفرت الله تعالى لكم حسب طلبكم غير الصّادقين فيه، فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً إن أراد بكم ضَرًّا وشرّاً وهلاكاً، أو أراد بكم نفعاً وخيراً وصلاحاً؟ إنّ الأمر لله تعالى وحده دون سواه من قبل ومن بعد، فتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بالإيمان وعمل الصّالحات واستباق الخيرات.

الحقيقة إنّ الله سبحانه وتعالى كان دائماً وأبداً خبيراً بما تعملون أيها المنافقون الزّاعمون أنّ سبب تخلّفكم عن الخروج معي الانشغال بمصالح الأموال والأهل. والحقيقة إنّ سبب امتناعكم عن الخروج في سبيل الله تعالى أنّكم ظننتم أنّ الرّسول النّبيّ ﷺ والمؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم مطلقاً، وزيّن الشيطان الرّجيم في قلوبكم المريضة ذلك الظّنّ الكاذب، وظننتم ظنّ السَّوْء الآخر؛ بأنّ الله تعالى لن ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين. وكنتم بسبب تلك الظنون السّيّئة قوماً هلكى، لأنّ كلّ ظنونكم السّيّئة ضدّ الإسلام وأهله قد انقلبت بفضل الله تعالى نصراً للإسلام وأهله بل فتحا مبيناً.

ومن لم يؤمن بالله تعالى إيماناً مطلقاً؛ ومن لم يطع الرّسول ﷺ طاعةً مطلقةً؛ فإنّه من الكافرين الّذين أعددنا لهم يوم القيامة ناراً متأجّجةً يَصْلونها. فخذوا أيّها المنافقون حذركم، وتوبوا إلى بارئكم على الفور توبةً نصوحاً.

ولله ملك السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً. يغفر لمن يشاء من المستغفرين التائبين، ويعذّب من يشاء من المذنبين. وكان الله تعالى دائماً وأبداً غفوراً لمن استغفره بإخلاص، رحيماً وسعت رحمته كلّ حي وشيء ، وشملت المذنبين الّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فقبل توبتهم.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

يريدون أن يبدّلوا كلام الله : يريدون أن يغيّروا وعد الله تعالى، من شهد الحديبية أن يفتح عليهم خيبر، وأن يعطيهم وحدهم غنيمتها. فلمّا علم المنافقون أنّها الغنيمة قالوا: ذرونا نتبعكم[1] كذلكم قال الله من قبل: بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر لأنّ غنيمتها لغيركم[2].

سيقول الأعراب حول المدينة المنورة الّذين تخلّفوا عن الخروج مع النبي ﷺ والمؤمنين؛ إذا انطلقتم أيها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ واتجهتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم، واتركونا نكن معكم في سفركم هذا. إنهم يريدون أن يبدّلوا كلام الله تعالى الّذي وعد الّذين شهدوا الحديبية وَحْدهم بغنيمة خيبر. قل لهم يا محمد لن تتبعونا في غزوتنا هذه. لقد قال الحقّ جلّ وعلا هذا من قبل وحكم به. إنهم سيقولون لكم دون استحياء : الحقيقة أنّكم تحسدوننا وتريدون أن تنفردوا بأخذ الغنائم، وكذب المنافقون، الحقيقة إنهم لا يفقهون إلا قليلاً وليسوا أهلا لأن يفهموا ما يقال لهم .

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦/٥٠ .

[2] تفسير الطّبري ٢٦/٥٠ .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

قل يا محمّد للمخلّفين زمن الحديبية من الأعراب حول المدينة المنوّرة ستُدْعون مستقبلاً إلى قومٍ أولي بأسٍ شديد مثل بني حنيفة قوم مُسَيْلَمة الكذّاب، وفارس والرّوم ومن إليهم، تقاتلونهم إن أصرّوا على دينهم وعلى عدم دفع الجزية، أو يسلمون فيكونون إخواناً لكم. فإن تطيعوا وتلبّوا داعي الجهاد يؤتكم الله تعالى أجراً حسناً، وإن تتولوا كما توليتم من قبل، وتتخلفوا كما تخلّفتم زمن الحديبية، يعذبّكم الله تعالى عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم لن يكونوا أمثالكم .

ولا يخفى أنّ الآية الكريمة في مجال الإنباء بالغيب، وقد تحقّق كلّ ذلك لاحقاً.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

حرج : ضيقٌ وإثم [1].

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهانى : « حرج » ١٤٧/١ .

بعد الحديث عن غير ذوي الأعذار في التّخلّف عن الجهاد في سبيل الله تعالى، يتحوّل الحديث إلى ذوى الأعذار. تقرّر الآية الكريمة أنّه لا ضيق ولا إثم على من تخلّف بعذر عن الجهاد في سبيل الله تعالى بسبب العمى أو العرج أو المرض. إنّ الشّخص مادام مريضاً فهو من ذوي الأعذار حتّى يبرأ. ومن يطع الله تعالى ورسوله ﷺ طاعةً مطلقة ويبادر إلى الجهاد في سبيل الله تعالى؛ يدخله عزّ وجلّ جنّات تجرى من تحتها الأنهار . ومن يعرض عن الاستجابة لداعيً الجهاد في سبيل الله تعالى يعذّبه جلّ وعلا عذاباً أليماً .